

## ﴿...وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا...﴾

(١)

محسن الأسدي<sup>١</sup>.

لعلنا في هذه المقالة، نوفق في دراسة آيات قرآنية، ذُكرت فيها مفردة النسك ومشتقاته، وبيان مدى علاقتها بالحج والعمرة أحكاماً ومفاهيم وآداباً وتأريخاً..، بل تطلق في الأعم الأغلب على ما يتضمنه الحج من شعائر وعبادات ومواقع، إن لم نقل قد اختصت بها... وهو ما نريد الوقوف عنده في هذه المقالة بأكثر من حلقة إن شاء الله تعالى.

\*\*\*

والآيات التي توفرت فيها مفردة النسك والمنسك ..

في سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ﴾ ٢: ١٢٨ .

﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ

١ . محقق و باحث ديني .



فَفِدْيَةٌ مِّنَ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢: ١٩٦﴾ .

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ ﴿٢: ٢٠٠﴾ .

في سورة الأنعام: ١٦٢ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

في سورة الحج: ٣٤ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ .

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَأُدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾: ٦٧ .

ولم يكن هناك في التنزيل العزيز إلا هذه الآيات ذكرت هذه المفردات: مَنْسَكُنَا، نُسُكٍ، مَنْسِكِكُمْ، وَنُسُكِي، مَنْسَكًا، مَنْسَكًا، نَاسِكُوهُ.

والتي جاءت سبع مرّات في ستة مواضع من آيات قرآنية مباركة، لعل أغلبها إن لم يكن جميعها تشير إلى الحج والعمرة أعمالاً كالإحرام والطواف والسعي... ومواضع أو مواقف؛ عرفة؛ والمشعر ومنى... وفي رأي أن هذه المواضع أو المعالم وتلك الأعمال، والتي تكفلت الكتب والرسائل الفقهيّة تفصيل أحكامها الشرعية... سمّيت مناسك؛ إمّا لأنها الموضوع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شرّ، أو لأنها الأماكن التي يُتردّد إليها في الحج والعمرة، أو لأنها جمع «منسك»، وهو الموضوع الذي ينسك لله فيه، ويتقرّب إليه فيه بما يرضيه من عمل صالح إمّا بذبح ذبيحة له، وإمّا بصلاة أو طواف أو سعي، وغير ذلك من الأعمال الصالحة ولذلك قيل - والكلام للطبري - لمشاعر الحج: مناسكه؛ لأنها أمارات وعلامات



يعتادها الناس، ويترددون إليها. أو أن النسك هو العبادة وأن الناسك هو العابد، وقد اختص بأعمال الحج، أو أنه شاع بأعمال الحج، أو هي كما يقول قتادة: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة عن عرفات والإفاضة من جمع ورمي الجمار حتى أكمل الله الدين.

ووصف الشيخ الطوسي قول قتادة هذا بعد أن ذكره أيضاً مع أقوال في تبيانه بقوله: فهذا القول أقوى؛ لأنه العرف في معنى المناسك.

ولعل هناك غير هذا نجده في أقوالهم. فهذا الشيخ الطبري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا...﴾. سورة الحج: ٣٤، ٦٧.

بعد أن يذكر:.. أن أصل المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شر، يقال: إن فلان منسكاً يعتاده: يراد مكاناً يغشاه ويألفه لخير أو شر.

يقول: وإنما سميت مناسك الحج بذلك، لتردد الناس إلى الأماكن التي تعمل فيها أعمال الحج والعمرة.

أو... ولذلك قيل لمشاعر الحج: مناسكه؛ لأنها أمارات وعلامات يعتادها الناس، ويترددون إليها. هذا ما خلص إليه الطبري.

وكذا قالها الفراء: «وَبِهِ سُمِّيَتِ الْمَنَاسِكُ»، ولكن بعد أن ذكر: الْمَنَسُكُ وَالْمَنَسِكُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ؛ الْمَوْضِعُ الْمُعْتَادُ الَّذِي تَعْتَادُهُ. وَيُقَالُ: إِنَّ لِفُلَانٍ مَنَسِكًا يَعْتَادُهُ فِي خَيْرٍ كَانَ أَوْ غَيْرِهِ،...

مضيفاً قول الشاعر ذي الرمة:

وَرَبَّ الْقَلَاصِ الْخَوْصِ تَدْمَى أَنْوْفَهَا      بنخلة والساعين حول المناسك ...

فيما ابن الأثير بعد أن يذكر:.. وَمَنَسِكٌ، بَفَتْحِ السَّيْنِ وَكَسْرِهَا، وَهُوَ الْمَتَعَبْدُ وَيَقَعُ عَلَى الْمُسَدَّرِ وَالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، يَقُولُهَا وَاضِحَةً صَرِيحَةً: ثُمَّ سُمِّيَتْ أُمُورَ الْحَجِّ كُلُّهَا مَنَاسِكًا.



وعن قتادة؛ المناسك: معالم الحجّ. أو هي جميع أفعال الحجّ كما عن غيره...  
أما الراغب فيذهب إلى اختصاصه بأعمال الحجّ؛ حيث يقول: نسك: النسك العبادة  
والناسك العابد، «واختصّ بأعمال الحجّ».  
وكذلك يقول البيضاوي: والنُّسْكُ في الأصل غاية العبادة، وشاع في الحجّ؛ لما فيه  
من الكلفة والبعد عن العادة...  
والكلام نفسه رده بعده كلُّ من ابن عجيبة والفيض الكاشاني في تفسيريهما وكذا  
الآلوسي.

فيما القرطبي ذكر الاختلاف دون ترجيح لرأي، مكتفياً بقوله: وهو في الشرع اسم  
للعبادة يقال: رجل ناسك إذا كان عابداً.  
وهذا كلامه: إنّ أصل النُّسْكُ في اللغة الغسل يقال منه: نسك ثوبه إذا غسله.  
وهو في الشرع اسم للعبادة يقال: رجل ناسك إذا كان عابداً. واختلف العلماء في  
المراد بالمناسك هنا فقليل: مناسك الحجّ ومعالمه قاله قتادة والسُّدي... وقيل: جميع  
المتعبّات. وكلّ ما يُتعبَّد به إلى الله تعالى يقال له: مَنْسِكٌ وَمَنْسِكٌ. والناسك: العابد.  
قال النحاس: يقال نَسَكَ يَنْسِكُ، فكان يجب أن يقال على هذا: مَنْسِكٌ، إلا أنه  
ليس في كلام العرب مَفْعُلٌ.

محمد رشيد رضا: والمنسك... معناه غاية العبادة، وغلب استعمال النسك في عبادة  
الحجّ خاصّة، والمناسك في معالمه أو أعماله.

إذن فالمناسك وهي جمع منسك بفتح السين وكسرهما، ويقع على المصدر والزمان  
والمكان، هو: المتعبّد؛ وسميت أمور الحجّ كلّها مناسك.

والمنسك: المذبح، وقد نسك ينسك نسكاً إذا ذبح، والنسيكة: الذبيحة.

قال مجاهد وعطاء وابن جريج عن القرطبي: المناسك المذابيح أي مواضع الذبح...

ومن كلامهم: النسك: الطاعة والعبادة، وكلّ ما تُقرب به إلى الله عزَّ وجلَّ.



والنسك: ما أمرت به الشريعة، والورع ما نهت عنه، والنسك: العبادة، الناسك: العابد. والمناسك: مواقف النسك وأعمالها. واختصّ بأعمال الحجّ والذبيحة واحدة منها ولها أهمية كبرى.

وحتى جاء في تفسير الآية، البقرة: ١٢٤ ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...﴾.

أقوال منها: ما ذهب إليه كلُّ من الربيع وقتادة؛ أنّ الكلمات الواردة في الآية الكريمة هي: «منسك الحجّ». وفي تفسير الكشاف؛ قيل: هي مناسك الحجّ، كالطواف والسعي والرمي والإحرام والتعريف وغيرهنّ.

فيما قال جماعة: تلك الكلمات مناسك الحجّ خاصة. وقال بعضهم: بل الكلمات التي ابتلي بهن عشر خلال... وبعضهنّ في مناسك الحجّ. وفي قول... وأربعة في المشاعر: الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...﴾. قال: منهن مناسك الحجّ. وعنه: ابتلاه بالمناسك. وقال آخرون في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. إماماً في مناسك الحجّ.

وعن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾. قال الله لإبراهيم: إني مبتليك بأمر، فما هو؟ قال: تجعلني للناس إماماً. قال: نعم. قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين. قال: تجعل البيت مثابة للناس. قال: نعم. وأمناً قال: نعم. وتجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك قال: نعم. وترينا مناسكنا وتتوب علينا. قال: نعم. قال: وتجعل هذا البلد آمناً قال: نعم. قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم قال: نعم.<sup>١</sup>

أقول: وقد ذكرتها آيات قرآنيّة، ويبدو أنّ مجاهداً لم يُجهد نفسه سوى اقتباسها من التنزيل العزيز.



وهناك ردٌ لهذا ولغيره، كما ذكر صاحب تفسير المنار قال: وقال شيخنا في الدرس: جعل التكليف بالكلمات؛ لأنها تدل عليها، وتعرف بها عادةً، ولم يذكر الكلمات ما هي ولا الإتمام كيف كان؛ لأنَّ العرب تفهم المراد بهذا الإبهام والإجمال، وأنَّ المقام مقام إثبات أنَّ الله تعالى عامل إبراهيم معاملة المبتلي، أي المختبر له؛ لتظهر حقيقة حاله، ويترتب عليها ما هو أثر لها، فظهر بهذا الابتلاء والاختبار فضله بإتمامه ما كلفه الله تعالى إياه وإتيانه به على وجه الكمال. هذا هو المبادر.

وبعد كلامه هذا يقول: ولكنَّ المفسرين لم يألوا في تفسير الكلمات والخطب في تعيينها، فقال بعضهم: إنَّها مناسك الحجّ،...

ومع هذه الإشارة، نذكر التلخيص التالي عن المراد من النسك أو معانيه: فمما لا ريب فيه عندهم أنَّ النسك يتضمن العبادة والطاعة، بل حقيقته العبادة، ومنه يسمى العابد الناسك، مع توفّر نية التقرب إلى الله تعالى، والآية ١٦٢ من سورة الأنعام في هذا واضحة إذ تقول: وسيأتي الكلام عنها. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ومع ذلك، فإنَّ النسك وجمعه مناسك، كما تحدثوا، جاءت بمعانٍ عديدة، فهي تأتي بمعنى: الدين.. العبادة مطلقاً.. المتعبد.. تعبداتنا.. الذبائح التي يُتقرب بها إلى الله تعالى، أو الموضع الذي تقدّم فيه الذبائح قربةً إلى الله تعالى.. شعائر الحجّ، ومنها: الأماكن التي تؤدّى فيها شعائر الحجّ. كالصفا والمروة، وهما من شعائر الله بنصّ القرآن: سورة البقرة: ١٥٨ ﴿إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

١. انظر في هذا كله الطبري (ت ٣١٠ هـ) في جامع البيان في تفسير القرآن؛ وابن الأثير في تاج العروس للزبيدي ١٣: ٦٥٨؛ لسان العرب لابن منظور ١٠: ٤٩٩؛ ومفردات القرآن للراغب: ٤٩٠-٤٩١؛ تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ) الآية ١٢٨ البقرة؛ تفسير القرآن، ابن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ)؛ الصافي في تفسير كلام الله الوافي للفيض الكاشاني



وهذه الخلاصة تدعو إلى تتبع مفردة النسك ومشتقاتها في مصادرها اللغوية والتفسيرية والحديثية، وما ورد عن أهل اللغة لا يتعد كثيراً عما ذكره أهل التفسير والحديث.

### النسك لغةً وأنواعه:

نَسَكَ فلانٌ يَنْسِكُ نِسْكَاً وَنُسْكَاً وَنُسْكَاً؛ وَنَسَكَةً، وَمَنْسِكاً وَمَنْسِكاً: تَزَهَّدَ وَتَعَبَّدَ.

(نَسَكَ) (نُسْكَاً) وَنَسَاكَ: صَارَ نَاسِكاً. (انْتَسَكَ): تَزَهَّدَ وَتَعَبَّدَ. (تَنَسَّكَ): انْتَسَكَ.

(النَّاسِكُ): المتعبَّد المتزهد. (ج) نُسَّاكٌ.. (النَّاسِكَةُ): المتعبدة..

(الْمَنْسَكُ): طريقة الزهد والتعبُّد. يُقال: إنَّ له مَنْسِكاً وَمَنْسِكاً يَنْسِكُ، وفي التنزيل

العزیز: سورة الحج؛ الآيتان: ٦٧، ٣٤ وسنقف عندهما.

و الْمَنْسَكُ وَالْمَنْسِكُ، «مَنْسَكاً» مرَّةً تأتي بفتح السين على أنَّها مصدر ميمي. وأخرى

تأتي بكسر السين على أنَّها اسم مكان، فهو على هذا موضعٌ تُذْبَحُ فيه النَّسِيكة. (ج)

مَناسِك.

و(مَناسِكِ الْحَجِّ): عباداته. وفي التنزيل العزیز: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَادْخُرُوا

اللَّهَ...﴾. سورة البقرة: ٢٠٠.

(النُّسْكُ): كُلُّ حَقٍّ لِّلَّهِ تَعَالَى. وَالدَّبِيحَةُ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ. وَالنَّسْكُ بضمين: اسم

منه، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾. وذبح ذبيحةً تقرب بها إلى الله.

(ج) نُسْكٌ، وَنَسَائِكُ. وفي التنزيل العزیز: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾.

سورة البقرة: ١٩٦.

ابن منظور: نسك: النُّسْكُ والنُّسْكُ: الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ، وَكُلُّ مَا تُقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ

(ت ١٠٩٠ هـ)؛ تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة (ت ١٢٢٤ هـ)؛ تفسير

روح المعاني، الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ)؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي؛ الكشاف للزمخشري:

الآية: ١٢٤ البقرة؛ تفسير مكِّي، مكِّي بن أبي طالب (٤٣٧ هـ)؛ تفسير المنار، محمد رشيد بن علي

رضا (ت ١٣٥٤ هـ)...



تَعَالَى، وَقِيلَ لِتَغْلَبَ: هَلْ يُسَمَّى الصَّوْمُ نُسْكَاً؟ فَقَالَ: كُلُّ حَقٍّ لَلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُسَمَّى نُسْكَاً.

نَسَكَ لِلَّهِ تَعَالَى يَنْسُكُ نُسْكَاً وَنَسِكَاً وَنَسَكَ، الصَّمُّ عَنِ اللَّحْيَانِي،...  
وَرَجُلٌ نَاسِكٌ: عَابِدٌ. وَقَدْ نَسَكَ وَتَنَسَكَ أَي تَعَبَّدَ. وَنَسَكَ، بِالضَّمِّ، نَسَاكَةٌ أَيْ صَارَ نَاسِكَاً، وَالْجَمْعُ نَسَاكٌ.

وَالْمَنْسَكُ وَالْمَنْسِكُ: الْمَذْبُوحُ. وَقَدْ نَسَكَ يَنْسُكُ نُسْكَاً إِذَا ذَبَحَ... وَالنُّسُكُ وَالنَّسِيكَةُ: الدَّبِيحَةُ، وَقِيلَ: النُّسُكُ: الدَّمُّ، وَالنَّسِيكَةُ: الدَّبِيحَةُ، تَقُولُ: مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا، فَعَلَيْهِ نُسُكٌ أَيْ دَمٌ يَهْرِيْقُهُ بِمَكَّةَ، شَرَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَاسْمُ تِلْكَ الدَّبِيحَةِ النَّسِيكَةُ، وَالْجَمْعُ نُسُكٌ وَنَسَائِكٌ. وَالنُّسُكُ: مَا أَمَرَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ، وَالْوَرَعُ: مَا نَهَتْ عَنْهُ.

وَقِيلَ: الْمَنْسَكُ النَّسُكُ نَفْسُهُ. وَالْمَنْسِكُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي تُذْبَحُ فِيهِ النَّسِيكَةُ وَالنَّسَائِكُ. النَّصْرُ: نَسَكَ الرَّجُلُ إِلَى طَرِيقَةٍ جَمِيلَةٍ أَيْ دَاوَمَ عَلَيْهَا. وَيَنْسُكُونَ الْبَيْتَ: يَأْتُونَهُ.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: قَرِئَ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً﴾. وَمَنْسِكاً، قَالَ: وَالنَّسُكُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى النَّحْرِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: جَعَلْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ أَنْ تَتَقَرَّبَ بِأَنْ تَذْبَحَ الذَّبَائِحَ لِلَّهِ، فَمَنْ قَالَ: مَنْسِكٌ فَمَعْنَاهُ مَكَانٌ نُسُكٌ مِثْلُ مَجْلِسٍ مَكَانٌ جُلُوسٍ، وَمَنْ قَالَ: مَنْسَكٌ فَمَعْنَاهُ الْمَصْدَرُ نَحْوُ النَّسُكِ وَالنُّسُوكِ.

غَيْرُهُ: وَالْمَنْسَكُ وَالْمَنْسِكُ الْمَوْضِعُ الَّذِي تُذْبَحُ فِيهِ النَّسُكُ، وَقَرِئَ بِهِمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾.

وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْمَنْسَكُ وَالْمَنْسِكُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ؛ الْمَوْضِعُ الْمَعْتَادُ الَّذِي تَعْتَادُهُ. وَيُقَالُ: إِنَّ لِفُلَانٍ مَنْسِكاً يَعْتَادُهُ فِي خَيْرٍ كَانَ أَوْ غَيْرِهِ، وَبِهِ سُمِّيَتِ الْمَنَاسِكُ.

ابْنُ الْأَثِيرِ: قَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُ الْمَنَاسِكِ وَالنُّسُكِ وَالنَّسِيكَةِ فِي الْحَدِيثِ، فَالْمَنَاسِكُ جَمْعُ مَنْسَكٍ وَمَنْسِكٍ، بَفَتْحِ السَّيْنِ وَكَسْرِهَا، وَهُوَ الْمَتَعَبَّدُ وَيَقَعُ عَلَى الْمَصْدَرِ وَالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، ثُمَّ سُمِّيَتْ أُمُورُ الْحُجِّ كُلُّهَا مَنَاسِكاً.





الراغب: نسك: النسك العبادة والناسك العابد، واختصّ بأعمال الحجّ، والمناسك مواقف النسك وأعمالها، والنسيكة مختصة بالذبيحة، قال: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. سورة البقرة: ١٩٦ .

- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ...﴾. سورة البقرة: ٢٠٠ .

- ﴿مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾.

والمَنَسَكُ والمَنَسِكُ: شُرْعَةُ النَّسْكِ. وَ فِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا...﴾. أَي مُتَعَبِّدَاتِنَا... وَقِيلَ: المَنَسَكُ النَّسْكَ نَفْسُهُ.

وَالنُّسْكَ: مَا أَمَرَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ، وَالوَرَعُ: مَا نَهَتْ عَنْهُ.

ولعلها كناية ما أجملها للناسك!

تلك التي نجدها في كلام ذكره بعض أهل اللغة في معاني هذه المفردة (نسك، النسك، المناسك) والتي لا تخلو من جمال وجلال، تصلح أن تكون كناية عن تخليص النفس مما لحق بها من أدران وتصفيتها وتطهيرها، وهو قولهم: إِنَّ أَصْلَ النَّسْكِ فِي اللُّغَةِ الغَسْلُ يُقَالُ مِنْهُ نَسَكَ تَوْبَهُ إِذَا غَسَلَهُ، وَ الثَّوْبَ وَنَحْوَهُ نَسَكَ: غَسَلَهُ بِالمَاءِ فَطَهَّرَهُ. وَالأَرْضُ: طَيَّبَهَا وَسَمَّدهَا. وَ البيت: أَتَاهُ، نَسَكَ الرَّجُلُ إِلَى طَرِيقَةٍ جَمِيلَةٍ أَي دَاوَمَ عَلَيْهَا، وَأَجْمَلَهَا أَنَّهُمْ يَنْسُكُونَ البَيْتَ أَي يَأْتُونَهُ...

وَنَسَكَ الثَّوْبَ: غَسَلَهُ بِالمَاءِ وَطَهَّرَهُ، فَهُوَ مَنَسُوكٌ؛ وَقَدْ أُنشِدَ فِيهِ بَيْتُ شِعْرٍ:

وَلَا يَنْبُتُ المَرْعَى سِبَاحُ عُرَاعِرٍ      وَلَوْ نُسِكَتْ بِالمَاءِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ

وَأَرْضُ نَاسِكَةٍ: خَضْرَاءٌ حَدِيثَةُ المَطَرِ، فَاعِلَةٌ بِمَعْنَى مُفْعُولَةٍ.

ابْنُ الأَعْرَابِيِّ: النَّسْكَ سَبَائِكُ الفِضَّةِ؛ كُلُّ سَبِيكَةٍ مِنْهَا نَسِيكَةٌ، وَقِيلَ لِلْمُتَعَبِّدِ نَاسِكٌ؛

لأنه خَلَصَ نَفْسَهُ وَصَفَّاهَا لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ دَنَسِ الأَثَامِ كَالسَّبِيكَةِ المُخَلَّصَةِ مِنَ الحَبْثِ.

وكذا قال نُعَلْبٌ لما سُئِلَ عَنِ النَّسْكِ، أَوْ عَنِ النَّاسِكِ مَا هُوَ؟



فَقَالَ: هُوَ مَاخُودٌ مِنَ النَّسِيكَةِ، وَهُوَ سَبِيكَةُ الْفِضَّةِ الْمُصَفَّاءِ كَأَنَّهُ خَلَّصَ نَفْسَهُ  
وَصَفَّاهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وفي قول عنه: النَّسِيكُ: الذَّهَبُ، وَالنَّسِيكُ: الْفِضَّةُ. وَالنَّسِيكَةُ: الْقِطْعَةُ الْغَلِيظَةُ مِنْهُ.

وبما أَنَّ النَّسِكَ هُوَ أَصْلُ الْعِبَادَةِ، وَبِأَنَّ الْمُتَعَبِّدَ نَاسِكٌ؛ لِأَنَّهُ خَلَّصَ نَفْسَهُ وَصَفَّاهَا  
لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ دَنَسِ الْأَثَامِ كَالسَّبِيكَةِ الْمُخْلِصَةِ مِنَ الْحَبْثِ. وَأَنَّ أَصْلَ النَّسِكَ هُوَ الْغَسْلُ  
وَالتَّطْهِيرُ وَالتَّطْيِيبُ... كَمَا صُرِّحَ بِهِ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ، يُمْكِنُ أَنْ يَتَضَحَّ أَنَّ  
تَسْمِيَةَ أَعْمَالِ الْحَجِّ وَشَعَائِرِهِ بِالْمَنَاسِكِ، لَهُ هَذِهِ الْمُنَاقِيَةُ الرَّائِعَةُ وَالصِّفَاتُ الْجَمِيلَةُ وَالتِّي  
تَتَضَمَّنُ مَنَافِعَ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْمُبَارَكَةِ سِوَاءَ أَكَانَتْ رُوحِيَّةً أَوْ أَخْلَاقِيَّةً أَوْ مَادِيَّةً... وَكَمَا  
ذَكَرَ النَّضْرُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ: نَسَكَ الرَّجُلُ إِلَى طَرِيقَةٍ جَمِيلَةٍ أَي دَاوَمَ عَلَيْهَا...

فَمَا أَجْمَلَهَا طَرِيقَةً؛ مَنَاسِكَ الْحَجِّ وَشَعَائِرِهِ، وَرُؤْيَا الْحِجَاجِ مُحْرِمِينَ مَلْبِينَ يَبْتَغُونَ  
فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَتَطْهِيرًا وَمَغْفِرَةً وَرِضْوَانًا!

وَلَعَلَّ لِهَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ، سَمِّيَتْ بِالْمَنَاسِكِ، وَهِيَ مَفْرَدَةٌ جَمِيلَةٌ وَصِفَتْ بِهَا فِي الْأَعْمِ  
الْأَغْلَبِ مَنْظُومَةُ الْحَجِّ وَالْعَمْرَةَ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ الْأُخْرَى؛ وَاجِبَةٌ وَمَسْتَحَبَةٌ  
وَهِيَ كَثِيرَةٌ..!

وَنَخْتَمُ هَذَا بِمَا نُسِبَ إِلَى أَبِي الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ مِنْ أَنَّ النَّسِكَ عِنْدَهُ هُوَ الدِّينُ، وَأَنَّ الْحَقَّ  
مِنْهُ مَا كَانَ عَنِ يَسْرِ فِي صِحَّةِ وَاقْتِدَارِ، يَقُولُ:

الدِّينُ هَجْرُ الْفَتَى اللَّذَاتِ عَنِ يَسْرِ      فِي صِحَّةِ وَاقْتِدَارِ مِنْهُ مَا عَمِرَا  
وَلَهُ أَيْضًا:

فَفُوزُوا بِنَسِكَ فِي الْحَيَاةِ وَثَبَتُوا      لِأَقْدَامِكُمْ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ انْهِيَارِهَا  
وَيَأْمُرُ بِالْإِرْتِيَاكِ إِلَى النَّسِكَ وَأَصْحَابِهِ، يَقُولُ:

إِلَى النَّسِكَ ارْتَحْ وَأَصْحَابِهِ      إِذَا فَاتَكَ الْقَوْمَ لَمْ يَرْتَحْ



ويرى أن النسك والمرء في شبابه، أما بعد الأربعين فالتنسك ضرورة، يقول من الطويل:

تَنَسَّكَتَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ ضَرُورَةً      وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَقُومَ الصَّوَارِحُ  
فَكَيْفَ تُرَجِّي أَنْ تُثَابَ وَإِنَّمَا      يَرَى النَّاسُ فَضْلَ النَّسْكِ وَالْمَرْءُ شَارِحُ<sup>١</sup>

### مع التفسير:

لنقف عند الآيات التي توفّرت على مفردة النسك والتي جاءت كما ذكرنا سبع مرّات في ستّ آيات قرآنية مباركة، وحسب الترتيب القرآني للسور إعراباً ولغةً وقراءةً وبياناً؛.. بدءاً بالآيتين:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ \* رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْنَهُمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. سورة البقرة: ١٢٨-١٢٩.

بدءاً نقول: يشكّل الدعاء في المشروع الإبراهيمي الركيزة الأعظم في إظهار جوهر العلاقة بين العبد وربّه، وفي انشداد الإنسان لمبدعه؛ وفي بيان الصلة الوثيقة بين الخالق والمخلوق؛ وفي انكشاف قوة الأول وضعف الثاني، غناء الأول وفقر الثاني، اكتفاء الأول وحاجة الثاني... والدعاء شكّل المنهج القويم الثابت والنافع والمثمر لدعوة الأنبياء وحركتهم وبالذات لإبراهيم عليه السلام؛ لهداية الناس إلى خالقهم، وإبعادهم عن

١. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وجماعته: ٩١٩؛ القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً، سعدي أبو الجيب: ٣٥٢، نَسَكَ؛ لسان العرب لابن منظور: ١٠: ٤٩٨-٤٩٠؛ النهاية لابن الأثير: ٥: ٤٥؛ أنيس الفقهاء: ١٤٤؛ تاج العروس، الزبيدي نَسَكَ: ١٣: ٦٥٨؛ مفردات الراغب: نَسَكَ؛ معجم ألفاظ الفقه الجعفري، الدكتور أحمد فتح الله: ٤٢٥: النسك؛ ديوان أبي العلاء المعري: الشارح: الشباب؛ رأي في أبي العلاء؛ الرجل الذي وجد نفسه، أمين الخولي: ٣٤.



سبل الضلال وتيه الانحراف عن الصراط المستقيم... كما أن أدعية إبراهيم تحمل أهداف دعوته، والمنهج الذي سلكه في مشروعه التوحيدي المبارك، وبالذات في فريضة الحج وكذا العمرة بناءً للبيت وتعريفًا بمناسك زيارته والتي لم تخلو من الاستعانة بالله تعالى على تحقيقها... لقد كان نبيُّ الله وخليته إبراهيم عليه السلام دائم الدعاء والتضرع لربه، وكان لابنه نبيُّ الله إسماعيل عليه السلام حصة مهمة، يشارك فيها أباه في بعض ذلك، فكانا معاً في دعائهما وفي ابتهاهما وتضرعهما، كما في الآيتين المذكورتين، وقد جاءتا ضمن مقطع قرآني متوفر على بعض الأدعية الإبراهيمية، بعد الذكر المبارك للبيت الحرام:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

ولعلَّ الجمع في الكلام بينهما؛ لما تحكيه من أهميّة للمناسك، ودور كلٍّ من إبراهيم عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله في إراءتها للناس (إبراهيم عليه السلام في الآية الأولى ورسول الله صلى الله عليه وآله في الثانية، كما يأتينا).

ولأنَّ ما توفرتا عليه من الدعاء مع انضمامه إلى باقي الأدعية في آيات أخر، تشكل بمجموعها ذكراً جميلاً للحركة التوحيدية لنبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، ولاستعانتته الدائمة بالله تعالى على مقارعة الشرك واجتثاث معالمه وآثاره، تمهيداً لبناء المشروع التوحيدي الإيماني والعملي في الناس... فضلاً عن أنها قد واكبت سيرته العطرة، وراحت تحكي لنا مناقبه وجهوده التي لا تنفك عن قدرة السماء وإرادتها في أربع آيات وهي:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

والمعطوف عليه هو ذلك الدعاء المشترك بين إبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ



## السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

وفيها إسماعيل معطوف على إبراهيم، لاشتراكهما في الدعاء، بعد أن كانا مشتركين في رفع القواعد؛ فإبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة أو أنهما رفعوا القواعد معاً... وكأنهما يقولان: لقد أمرتنا يارب أن نرفع القواعد من البيت، وهانحن قد فعلنا ما أمرتنا، وأنجزنا هذه الخطوة من مشروع السماء المبارك، فتقبل منا! ولم يكتفيا بهذا، بل راحا سويةً يدعوان الله تعالى؛ يطلبان أربعة أمور تضمنتها الآية الأولى:

﴿رَبَّنَا وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. سورة البقرة: ١٢٨.

كان المطلب الثالث هو: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

هذه الآية تُعدُّ واحدةً من آيات في مقطع قرآني مبارك يتوفّر على أدعيةٍ لنبيين؛ الأب إبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام، تسبقها أدعية مباركة وتلحقها، ولا غرابة في هذا فالدعاء هنا يمثل طلبهما الخامس فقد تجسّد عظيمًا واضحاً حين لم يتوقفا بدعائهما ذلك ولم يكتفيا به، بل عقّباه بالدعاء لهذه الأمة المسلمة المنبثقة من ذريتهما بالهداية وعلى يدي رسول منها لا من غيرها؛ ليكون خاتم الحركة التوحيدية لإبراهيم ولجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام من قبل إبراهيم عليه السلام ومن بعده، قائلين: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وقد تتضح المناسبة بين هاتين الآيتين، حين نعرف أن إبراهيم وإسماعيل تعلما مناسك الحج مباشرةً، فيما تعلمتها ذريتهما من بعدهما بواسطة رسول الله صلى الله عليه وآله. ولعلّ هذه خلاصة ما ذكره البقاعي في تفسيره:

... ولما كان المسلم مضطراً إلى العلم قال: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ وفي ذلك ظهور

لشرف عمل الحج حيث كان مُتلقياً عن الله بلا واسطة؛ لكونه علماً على آتي يوم الدين



حيث لا واسطة هناك بين الربّ والعباد...

ثمّ يقول: ولما طلب ما هو له في منصب النبوة من تعليم الله له المناسك بغير واسطة، طلب لذريته مثل ذلك بواسطة من جرت العادة به لأمثالهم، فقال: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ﴾. أي الأمة المسلمة التي من ذريتي وذرية ابني إسماعيل ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ ليكون أرفق بهم وأشفق عليهم، ويكونوا هم أجدر باتباعه والترامي في نصره، وذلك الرسول هو محمد ﷺ، فإنه لم يبعث من ذريتهما بالكتاب غيره، فهو دعوة إبراهيم عليه السلام أبي العرب وأكرم ذريته...

فهذه أدعية ثلاثة في المقطع المذكور، اشترك فيها كل من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهي:

﴿...رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ...﴾.

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ...﴾.

وهما يكرران نداء هما الخالي من أداة البعد أي حرف النداء (يا) واكتفا بقولهما ﴿رَبَّنَا﴾ وعن فائدة تكرير النداء في هذه الآيات، يقول ابن عاشور: إظهار الضراعة إلى الله تعالى، وإظهار أن كل دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات، ولذلك لم يكرر النداء إلا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى، فإن الدعوة الأولى لطلب تقبل العمل، والثانية لطلب الاهتداء، فجملة النداء معترضة بين المعطوف هنا والمعطوف عليه في قوله الآتي:

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً...﴾. سورة البقرة: ١٢٩ .

يقول الرازي: اعلم أنّ هذا هو النوع الرابع من الأمور التي حكاها الله تعالى عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهو أنّها عند بناء البيت ذكرا ثلاثة من الدعاء...<sup>١</sup>

١. تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (ت ٨٨٥ هـ): الآيتان؛ التحرير والتنوير

لابن عاشور؛ مفاتيح الغيب للرازي، الآيات .



ولعلَّ بين هذه الأدعية أيضاً ترابطاً وفوائد... منها أنَّ المناسك التي أُرِدا من الله تعالى أن يُريها لهما تتعلَّق بالبيت المبارك الذي قاما برفع قواعده فتشيدته، فكانا شريكين في بناء البيت وفي الدعاء... ثمَّ في تطهيره كما في الآيتين: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. سورة الحج: ٢٦. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. سورة البقرة: ١٢٥ .

من أن تلوثه أيدي الشرك وعبادة الأوثان؛ تمهيداً لأداء هذه المناسك، وإعداداً لمشاعر الحجِّ والعمرة، فهو ميدانها الأصيل لكلِّ من يريد أن يكون في دائرة أولئك الذين لبَّوا نداء إبراهيم عليه السلام المتمثل في سورة الحج: ٢٧. ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحُجِّ يَا تُشُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

ليكون من قاصدي البيت حاجاً أو معتمراً فيطوف به، ويسعى بين الصفا والمروة... وبالتالي يلج في دائرة الطائفين والقائمين والعاكفين والركع السجود...

ثمَّ إنهما بعد أن دعوا الله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ...﴾. دَعَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ أيضاً: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ...﴾، وسيأتي الكلام عنها.

هذا، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ هذه الآية المباركة في سورة البقرة جاءت ضمن مقطع قرآني كريم (الآيات: ١٢٤-١٢٩)، بدءاً بتأسيس الإمامة الإبراهيمية، بعد أن اجتاز نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام جميع الابتلاءات، وحقَّق فوزاً عظيماً يُرضي السماء، فما أعظمه من برهان على منزلته عند ربِّه، ورضا الله عزَّ وجلَّ عنه! حتى منحه هذا الوسام الكبير، والفضل الجليل، ألا وهو الإمامة كما جاءت بذلك هذه الآية المباركة: ١٢٤ ﴿وَإِذْ أٰبْتَلٰٓىٓ اِبْرٰهٖمَ رَبُّهُٓ بِكَلِمٰتٍ فَاَتَمَّهُنَّ قَالَ اِنِّىٓ جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ اِمٰمًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِيْنَ﴾!



إلا أن إبراهيم عليه السلام ولمعرفته بجلالة هذه الدرجة التي منحها له السماء، ولعظمتها في عينه، تمنى أن لا تبقى عليه فقط، وأن لا تقف عنده، وأن لا تختص به دون غيره من ذريته، بل أن يحظى أولاده وأحفاده بهذا العطاء الطيب، وهم يشكّلون امتداده الطبيعي، فلا يتعدون عن دائرتها، بل أن يكونوا جزءاً فاعلاً فيها؛ ولهم نصيب منها، فرفع يديه راجياً متمنياً متوسلاً: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

فاستجابت السماء ذلك منه، لكن ليس على إطلاق حتى جزء الذرية هذا، أو عموم هذه البعضية من الذرية، دون أن تقيدها بالصالحين وتخصها بالمتقين من نسله عليه السلام، الذين هم الأعظم اتباعاً لشرعه، والأكثر اقتفاءً لآثاره، والأصدق التزاماً بعهد الإمامة، وتُبعد الظالمين عنها، فلا ينالون شيئاً من العهد المبارك هذا؛ لأنهم ظلموا أنفسهم وظلموا الآخرين، فلا مجال لهم ولا مكان في عهد الإمامة الإبراهيمية، طرداً للظلم بكل أشكاله وإبعاداً لجميع أتباعه ومريديه...

وبمثل هذا ما قرره سيد قطب بقوله أن: الظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي... والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة... وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة. فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها. ومن ظلم أي لون من الظلم فقد جرّد نفسه من حق الإمامة، وأسقط حقه فيها بكل معنى من معانيها...<sup>١</sup>

إن أدب الدعاء لإبراهيم عليه السلام بعد آية الإمامة وبيانها وإجابتها، بل ورفضها الصريح المتمثل بقولها: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. سورة البقرة: ١٢٤ يتجلّى أيضاً بعد ثلاث آيات أي في الآية: ١٢٨ ﴿... وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا...﴾، وحدّد في دعائه مع ابنه إسماعيل عليه السلام أمنيتها صريحة أن تكون ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا...﴾، ولكن لبعض ذريتها!

١. في ظلال القرآن: الآية .





وهذا هو أدبه الذي صار منهجه حتى في دعائه الآخر: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾؛ سورة إبراهيم: ٤٠ .

ولعلها أيضاً كانا ﷺ ملتفتين إلى أن الدعاء لجميع ذريتهما وللأمة المنبثقة منها، ليس فيه رعاية للأدب مع الله عز وجل؛ لأنها أمة ستكون كثيرة وواسعة، وبحسب سنته تعالى في خلقه، منها أناس محسنون وفي قباهم ظالمون، ومنها أناس مهتدون وآخرون فاسقون: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾، سورة الصافات: ١١٣. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا التُّبُوءَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، سورة الحديد: ٢٦ .

فلم يخالف سنة الله تعالى في خلقه، فكان سؤالها لهما جميعاً، بل للبعض منها بالهداية للإسلام ولمعرفة المناسك التي نسبها لأنفسهما ﴿مَنَاسِكَنَا﴾،

وقد عرفها واعتزاً بها وحرصاً عليها، وإلا فهي مناسكها تعالى لعباده، أحب وارتضى أن يُعبد من خلالها!.. وأنها تُشكّل خير منظومة عبادية ترقى بالأرواح وتطهر النفوس، وتجعلها أعظم انشداداً لخالقها، والتزاماً بشرائعه، وبالتالي وجداً فيها كلّ خير في الدنيا والآخرة، فتمناها إبراهيم لأُمَّته كما تمنى لها الإمامة، وهذه سيرته ﷺ؛ ما إن تمنّى عليه السماء بعطاءٍ وخير وفضل إلا وأحبه ورجاه لبعض ذريته، وصارت سنةً مُتَّبَعَةً في عقبه، ولا غرابة في هذا وهو صاحب الوصية الكبرى لهم، فما أن نال نعمة الإسلام حتى اتجهت أنظاره إلى ذريته يُوصيهم بها: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ \* وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. سورة البقرة: ١٣٢-١٣٣ .

نلاحظ هذا الأدب الإبراهيمي في كلام ابن عاشور حين يقول:.. وإنما سأل ذلك لبعض الذرية جمعاً بين الحرص على حصول الفضيلة للذرية وبين الأدب في الدعاء؛ لأن نبوءة إبراهيم تقتضي علمه بأنه ستكون ذريته أماً كثيرة، وأن حكمة الله في هذا



العالم جرت على أنه لا يخلو من اشتماله على الأخيار والأشرار، فدعا الله بالممكن عادةً، وهذا من أدب الدعاء، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾. سورة البقرة: ١٢٤.

وظلّت هذه الفقرة من الآية موضع استدلالهم في الآية التالية لها، والتي فيها: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾.

وهذا يعني أن آية الإمامة لإبراهيم عليه السلام قد نزلت قبل دعائها هذا الذي فيه تخصيص لبعض ذريتهما أن يجعل الله سبحانه منها ﴿أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ﴾. كما أن بعض مفردات آية الإمامة هذه كالابتلاء والكلمات والإمامة استفاد منها بعضهم في مسألة مفردة المناسك... وهذا كلّه سنلاحظه في الآية الأولى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، سورة البقرة: ١٢٨؛ التي نقف عندها إعراباً وقراءةً ولغةً وتفسيراً:

### الإعراب:

﴿رَبَّنَا﴾، منادى مضاف محذوف منه حرف النداء، ولا بدّ من تقدير قول محذوف؛ أي يقولان: ربّنا، ويكثر حذف الحال إذا كان قولاً أغنى عنه المقول.

﴿وَاجْعَلْنَا﴾: عطف على ما تقدّم.

﴿مُسْلِمِينَ﴾: مفعول به ثان.

يقول السمين الحلبي: ﴿مُسْلِمِينَ﴾، مفعول ثان للجعل؛ لأنّه بمعنى التصيير، والمفعول الأول هو «نا».

﴿لَكَ﴾: الجار والمجرور متعلقان بمحذوف نعت مسلمين.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾، الواو عاطفة والجار والمجرور متعلقان بمحذوف دلّ عليه المذكور؛

أي واجعل من ذريتنا.



﴿أُمَّةٌ﴾ مفعول به أول للفعل المحذوف، ومن ذريتنا هو المفعول الثاني.

﴿مُسْلِمَةً﴾: نعت.

﴿لَكَ﴾: نعت ثان لأمة.

﴿وَأَرِنَا﴾ الواو عاطفة، وأر فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، والفاعل ضمير

مستتر تقديره أنت، ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به أول.

﴿مَنَاسِكِنَا﴾: مفعول به ثان.

﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾: عطف أيضاً.

﴿إِنَّكَ﴾: إن واسمها.

﴿أَنْتَ﴾: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ.

﴿التَّوَابُ﴾: خبر أول.

﴿الرَّحِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية خبر إن، ولك أن تعرب الضمير ضمير

فصل لا محل له من الإعراب. والتوابع الرحيم: خبر إن لأن، ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ

لَكَ...﴾، يفيد الحصر أي نكون مسلمين لك لا لغيرك، تمنيًا أن تكون هناك أمة ترث

ما هما عليه من الإسلام والمناسك...

### القراءة:

أبو حيان: ... وقراءة عبد الله: وأرهم مناسكهم وتب عليهم. واحتمال أن يكون:

وأرنا مناسكنا على حذف مضاف، أي وأر ذريتنا مناسكنا... ثم يقول: ... دعوا بأن

يجعلها مسلمين ومن ذريتها أمة مسلمة، وبأن يريها مناسكها، وبأن يتوب عليها...

وعن ﴿مُسْلِمِينَ﴾ في دعائها الصلوات: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾: مفعول به ثان لـ

«اجعلنا». يقول السمين الحلبي: قوله ﴿لَكَ﴾ فيه وجهان، أحدهما: أن يتعلّق بمُسْلِمِينَ،



لأنه بمعنى نُخْلِصُ لكَ أَوْ جِهَنَا نَحْوُ: ﴿أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ﴾، فيكون المفعول محذوفاً لفهم المعنى. والثاني: أنه نعتٌ لِمُسْلِمِينَ، أي: مُسْلِمِينَ مُسْتَقَرِّينَ لَكَ أَي: مُسْتَسْلِمِينَ، والأول أقوى معنًى.

أما القراءة فقد قرىء ﴿مُسْلِمِينَ﴾ على الجمع، كأنها أرادا أنفسهما وهاجر، أو أجريا التثنية على حكم الجمع لأنها منه. هذا ما ذكره الزمخشري في تفسيره للآية.

الشيخ الطوسي: روي في الشواذ عن عوف بن الاعرابي أنه قرأ (مسلمين) على الجمع.

قرأ ابن عباس «مسلمين»، بصيغة الجمع، وفي ذلك والكلام للسمين الحلبي تأويلان أحدهما: أنها أَجْرِيَا التثنية مُجْرَى الجمع، وبه استدلل مَنْ يَجْعَلُ التثنيةَ جمعاً. والثاني: أنها أرادا أنفسهما وأهلها كهاجر.

يقول الطبري: وهذا أيضاً خبر من الله تعالى ذكره عن إبراهيم وإسماعيل أنهما كانا يرفعان القواعد من البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾، يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك خاضعين لطاعتك، لا نُشْرِكُ مَعَكَ فِي الطَّاعَةِ أَحَدًا سِوَاكَ، ولا في العبادة غيرك... معنى الإسلام الخضوع لله بالطاعة.

الشيخ الطوسي: ... وإنما سألا الله تعالى أن يجعلهما مسلمين بمعنى: أن يفعل لهما من الألفاظ ما يتمسكان معه بالإسلام في مستقبل عمرهما؛ لأن الإسلام كان حاصلاً في وقت دعائهما، ويجري ذلك مجرى أحدنا، إذا أدب ولده وعرضه لذلك حتى صار أديباً، جاز أن يقال: جعل ولده أديباً. وعكس ذلك إذا عرضه للبلاء والفساد، وجاز أن يقال: جعله ظالماً محتالاً فاسداً. ويجوز أن يكونا قالا ذلك تعبداً كما قال تعالى: ﴿رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾، سورة الأنبياء: ١١٢.

ويقول البيضاوي: مخلصين لك، من أسلم وجهه، أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان، أو الثبات عليه.



﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾. وعن إضافة الذرية إليهما، يقول محمدرشيد رضا: أضافا الذرية إلى ضمير الاثنين، للدلالة على أن المراد الذرية التي تنسب إليهما معاً، وهي ما يكون من ولد إسماعيل، اللفظ ظاهر في هذا المعنى، ...

### من التبعية:

وهي التي يمكن حذفها ووضع (بعض) مكانها، وهنا وإن جوّز بعضهم أنها للتبيين، لكن القول إنّها للتبعية يبقى القول الأرجح. وقد خصّ إبراهيم عليه السلام بعضهم ولم يُعمّم؛ لأنه تعالى سبق وأن أعلمه أنّ في ذريته الظالمين؛ الظالم لنفسه والظالم لغيره في قوله: في آية الإمامة: ١٢٤ سورة البقرة، ﴿لَا يَتَّالِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ...﴾.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ...﴾، يفيد الحصر أي نكون مسلمين لك لا لغيرك، تميّناً أن تكون هناك أمة تراث ما هما عليه من الإسلام والمناسك...

أبو حيان... وقراءة عبد الله: وأرهم مناسكهم وتب عليهم. واحتمال أن يكون: وأرنا مناسكنا على حذف مضاف، أي وأر ذريتنا مناسكنا... ثم يقول:... دعوا بأن يجعلها مسلمين ومن ذريتها أمة مسلمة، وبأن يريها مناسكها، وبأن يتوب عليهما... أن يبعث في هذه الأمة، والتي سيكون وجودها بعد قرون وأجيال في مكة المكرمة وما حولها، من يواصل مسيرتها تلك، ويرفع عنها ما قد يُصيبها من تحريف واعتداء وتضييع، ويُعلمها دينها وشرائعها، والتي منها المناسك العبادية لبيتها العتيق الذي هم بقربه وحوله وهو بينهم؛ ليحجّوه على علم ومعرفة، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لم يُبعث سواه في مكة المكرمة، استجابةً لدعائها.

فهذا الشيخ الطبري في تفسيره يقول: فإنها خصّاً بذلك بعض الذرية؛ لأن الله تعالى ذكره قد كان أعلم إبراهيم خليله عليه السلام قبل مسألته هذه أنّ من ذريته من لا ينال عهده لظلمه وفجوره... ويقصد الطبري ما جاء في الآية: ١٢٤ من سورة البقرة.



ويواصل قائلاً: فخصاً بالدعوة بعض ذريتهما. وقد قيل: إنها عنياً بذلك العرب، فعن السدي: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾ يعنيان العرب.

ويردُّ الطبري هذا بقوله: وهذا قول يدلُّ ظاهر الكتاب على خلافه؛ لأنَّ ظاهره يدلُّ على أنها دعوا الله أن يجعل من ذريتهما أهل طاعته وولايته والمستجيبين لأمره، وقد كان في ولد إبراهيم العرب وغير العرب، والمستجيب لأمر الله والخاضع له بالطاعة من الفريقين، فلا وجه لقول من قال: عنى إبراهيم بدعائه ذلك فريقاً من ولده بأعيانهم دون غيرهم إلا التحكم الذي لا يعجز عنه أحد. وأما الأمة في هذا الموضع، فإنه يعنى بها الجماعة من الناس، من قول الله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، سورة الأعراف: ١٥٦.

الشيخ الطوسي: وإنما خصاً بالدعوة بعض الذرية في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ لأنَّ (من) للتبويض من حيث أن الله تعالى: كان أعلمه أن في ذريتهما من لا ينال العهد؛ لكونه ظالماً.

وقال السدي: إنما عنياً بذلك العرب. والأول هو الصحيح. وهو قول أكثر المفسرين.

وحسب ما ذكر القرطبي: أنه لم يدع نبياً إلا لنفسه ولأُمَّته إلا إبراهيم، فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأُمَّته ولهذه الأمة... و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾، للتبويض؛ لأنَّ الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين. والمسلم هو الذي استسلم لأمر الله وخضع له، وهو في الدين القابل لأوامر الله سرّاً وجهراً...

وللرازي في تفسير الآية: واجعل من أولادنا، و(من) للتبويض وخصَّ بعضهم؛ لأنه تعالى أعلمهما أن في ذريتهما الظالم بقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، سورة البقرة: ١٢٤.

وله أيضاً... أنه تعالى لما أعلم إبراهيم عليه السلام أن في ذريته من يكون ظالماً عاصياً، لا

جرم سأل هاهنا أن يجعل بعض ذريته أمة مسلمة.

جاء هذا النفي والردّ، حين حكى تعالى عنه والكلام للرازي أيضاً أنه طلب الإمامة لأولاده... فدلّ ذلك على أنّ منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين، فهو لاء متى أرادوا وجدان هذا المنصب وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل. البيضاوي:... أي واجعل بعض ذريتنا، وإنما خصّا الذرية بالدعاء؛ لأنّهم أحقّ بالشفقة، ولأنّهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، وخصّوا بعضهم لما أعلمنا أنّ في ذريتهما ظلمة، وعلمنا أنّ الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله تعالى، فإنّه مما يشوش المعاش، ولذلك قيل: لولا الحمقى لخربت الدنيا.

وقيل: أراد بالأمة أمة محمد ﷺ، ويجوز أن تكون (من) للتبيين كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾، سورة المائدة: ٩.

قدم على المبين وفصل به بين العاطف والمعطوف كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

وقد ذكر صاحب تفسير البرهان رواية عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت له: أخبرني عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام، من هم؟ قال: أمة محمد بنو هاشم خاصة. قلت: فما الحجّة في أمة محمد أنهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم؟ قال: قول الله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَكَ وَإِرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ﴾، فلما أجاب الله إبراهيم وإسماعيل، وجعل من ذريتهم أمة مسلمة، وبعث فيها رسولا منها - يعني من تلك الأمة يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ردف إبراهيم عليه السلام دعوته الأولى بدعوته الأخرى، فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام؛ ليصح أمره فيهم، ولا يتبعوا غيرهم، فقال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ \* رَبِّ إِنَّهُمْ





أَضَلَّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٥-٣٦﴾  
سورة إبراهيم: ٣٥ - ٣٦ .

ففي هذه دلالة على أنه لا تكون الأئمة والأئمة المسلمة التي بعث فيها محمدًا ﷺ إلا من ذرية إبراهيم عليه السلام، لقوله: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، سورة إبراهيم: ١٣٥

### ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾

فإن هذه الإراءة؛ أي إراءة إبراهيم عليه السلام مناسكه، الواردة في دعائه عليه السلام، تُعدُّ واحدةً من خصائصه العديدة التي تفضل الله تعالى عليه بها؛ واقرنت بأذانه بالحج للبيت الذي رفع قواعده وطهره، بعد اصطفائه بالنبوة والرسالة...

يذكر أبو حيان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا...﴾ سورة البقرة: ١٣٠. أي جعلناه صافياً من الأنداس، واصطفأؤه بالرسالة والخلة والكلمات التي وفي ووصى بها، وبناء البيت، والإمامة، واتخاذ مقامه مصلىً، وتطهير البيت، والنجاة من نار نمرود، والنظر في النجوم، وأذانه بالحج، وإراءته مناسكه، إلى غير ذلك مما ذكر الله في كتابه من خصائصه ووجوه اصطفائه... ٢

وصارت من أهمّ وظائف نبوته ورسالته للناس بعد بنائه للكعبة المشرفة وأذانه المبارك، أن يُريهم مناسكهم في كيفية حجّ هذا البيت المبارك، وفي زيارته، وأداء ما عليهم من واجبات إزاءه، مما يدلّ على عظمة هذا البيت وفضله وأهمية معالمة في المنظومة الإيمانية والعبادية والاجتماعية والثقافية التي تمنّاها كلُّ من إبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام للأمة المسلمة، وقد تجسّدت تلك المنظومة وهذه الأمنية في دعائها: ﴿... وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا...﴾. في الكافي عن أحدهما عليه السلام (ولعله

١. البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني (ت ١١٠٧هـ): الآية .

٢. البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤هـ): الآية .





الإمام الباقر أو الإمام الصادق عليه السلام) قال: «إنَّ الله تعالى أمر إبراهيم ببناء الكعبة، وأن يرفع قواعدها، ويُري الناس مناسكهم، فبنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت...».

فقراءة ﴿وَأَرِنَا﴾ لهم كلام طويل فيها، وفي المراد منها أو في أنواع الرؤية أهي القلبية أو البصرية أو هما معاً، أو هي بمعنى: علّمنا...، نكتفي بما ذكره بعضهم مع شيء من التصرف، وقبل التعرض لهذا، نشير إلى أن الرازي في تفسيره: ذكر أن في قراءة عبد الله: (وَأَرَهُمْ مَنَاسِكَهُمْ) وتب عليهم، وعن غيره: أن ابن مسعود قرأ: (وَأَرَهُمْ مَنَاسِكَهُمْ)، فالضمير رُدَّ إلى الأمة، أو بإعادة الضمير إلى الذرية، باعتبار أن هذه وتلك ذكرت في الآية: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾.

﴿وَأَرِنَا﴾ هل هي من رؤية العين، أو من رؤية القلب، أو هي رؤية القلب والبصر معاً؟

فهذا ما أشار إليه الطبري في تأويله للآية المذكورة، ضمن بيانه اختلاف قراءتها من قبل القراء، حيث إنه رتبهم على ثلاث طوائف من القراء، وذكر تأويل كل منهم ﴿مَنَاسِكُنَا﴾ وبيانا على ضوء قراءتهم، ونظراً لفائدتها ندونها كما أوردتها، ولكن باختصار سندها، وكانت تحت عنوان: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكُنَا﴾، فقال: اختلفت القراء في قراءة ذلك: فقرأه بعضهم: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكُنَا﴾ بمعنى رؤية العين، أي أظهرها لأعيننا حتى نراها. وذلك قراءة عامة أهل الحجاز والكوفة، وكان بعض من يوجه تأويل ذلك إلى هذا التأويل يسكن الراء من «أرنا»، غير أنه يُشْمُّها كسرة. ثم يقول: واختلف قائل هذه المقالة وقراء هذه القراءة في تأويل قوله: ﴿مَنَاسِكُنَا﴾، فقال بعضهم: هي مناسك الحج ومعالمه. ذكر من قال ذلك... عن قتادة قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكُنَا﴾ فأراهما الله مناسكهما؛ الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار، حتى أكمل الله الدين أو دينه. وأيضاً... عن قتادة في قوله: ﴿وَأَرِنَا



مَناسِكُنَا قال: أَرْنَا نُسْكُنَا وَحَجَّنَا...

وقال آخرون ممن قرأ هذه القراءة: المناسك المذابح. فكان تأويل هذه الآية على قول من قال ذلك: وأرنا كيف نُسكُ لك يا ربنا نسائكنا فنذبحها لك. ذكر من قال ذلك:.. عن ابن جريج، عن عطاء: ﴿وَأَرْنَا مَناسِكُنَا﴾ قال: ذَبَحْنَا. وأيضاً... عن ابن جريج، عن عطاء، قال: مذابحنا. و... عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد مثله. و... عن عطاء: سمعت عبید بن عمير يقول: ﴿وَأَرْنَا مَناسِكُنَا﴾ قال: أَرْنَا مذابحنا.

وقال آخرون: (وَأَرْنَا مَناسِكُنَا)، بتسكين الراء. وزعموا أن معنى ذلك: وعلمنا ودُّنَّا عليها، لا أن معناها أَرناها بالأبصار. وزعموا أن ذلك نظير قول حُطَّائِب بن يَعْفَر أخِي الأسود بن يعفر:

أَرِنِي جَوَاداً مَاتَ هُزْلاً لِأَنِّي أَرَى مَا تَرِينَ أَوْ بَخِيلاً مُحَلِّداً

يعني بقوله أريني: دليني عليه وعرفيني مكانه، ولم يعن به رؤية العين. وهذه قراءة زويت عن بعض المتقدمين. ذكر من قال ذلك:.. عن ابن جريج، قال: قال عطاء: ﴿وَأَرْنَا مَناسِكُنَا﴾: أخرجها لنا، علمناها.

وأيضاً عن ابن جريج، قال ابن المسيب: قال علي بن أبي طالب عليه السلام لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، قال: فعلت أي رب فأرنا مناسكنا، أبرزها لنا، علمناها، فبعث الله جبريل فحجَّ به.

وهنا يعقب الطبري قائلاً: والقول واحد، فمن كسر الراء جعل علامة الجزم سقوط الياء التي في قول القائل أرنيه، أرنه، وأقر الراء مكسورة كما كانت قبل الجزم. ومن سكن الراء من «أرنا» توهم أن إعراب الحرف في الراء، فسكنها في الجزم كما فعلوا ذلك في لم يكن ولم يك. وسواء كان ذلك من رؤية العين، أو من رؤية القلب. ولا معنى لفرق من فرق بين رؤية العين في ذلك ورؤية القلب.



أما الطبرسي، فقد ذكر أن ابن كثير قرأ أرنا بإسكان الراء كل القرآن، ووافقه ابن عامر وأبو بكر عن عاصم في السجدة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فَجَعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾، سورة فصلت: ٢٩.

وقرأ أبو عمرو بالاختلاس لكسرة الراء من غير إشباع كل القرآن والباقون بالكسر.

الحجة: الاختيار كسرة الراء؛ لأنها كسرة الهمزة قد حولت إلى الراء، لأنه أصله أرنا فنقلت الكسرة إلى الراء وسقطت الهمزة، ولأن في إسكان الراء بعد سقوط الهمزة إجحافاً بالكلمة وإبطالاً للدلالة على الهمزة، ومن سكنه فعلى وجه التشبيه بما يسكن في مثل كبد وفخذ، ونحو قول الشاعر:

لَوْ عَصَرَ مِنْهُ الْبَانُ وَالْمِسْكَ انْعَصَرَ

وقال الآخر:

قَالَتْ سُلَيْمَى اشْتَرَى لَنَا سَوِيْقًا      وَاشْتَرَى وَعَجَّلَ خَادِمًا لَبِيْقًا

وأما الاختلاس فلطلب الخفة وبقاء الدلالة على حذف الهمزة.

القرطبي: ﴿أَرِنَا﴾ من رؤية البصر، فتعدى إلى مفعولين.

وقيل: من رؤية القلب، ويلزم قائله أن يتعدى الفعل منه إلى ثلاثة مفاعيل.

قال ابن عطية: وينفصل بأنه يوجد معدى بالهمزة من رؤية القلب إلى مفعولين كغير المعدى، قال حطائط ابن يعفر أخو الأسود بن يعفر:

أَرِنِي جَوَادًا مَاتَ هَزْلًا لِأَنِّي      أَرِي مَا تَرَيْنَ أَوْ بِخِيَالًا مُخَلَّدًا

البيضاوي: وقرأ ابن كثير والسوسي عن أبي عمرو ويعقوب ﴿أَرِنَا﴾ قياساً على فخذ في فخذ، وفيه إجحاف؛ لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها. وقرأ الدوري عن أبي عمرو بالاختلاس..



و﴿أَرِنَا﴾ من رأى بمعنى أبصر، أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين.

علمنا سنن حجنا. علمنا وعرفنا. ومن قبله قاله الزمخشري: ﴿وَأَرِنَا﴾ منقول من رأى بمعنى أبصر أو عَرَفَ. ولذلك لم يتجاوز مفعولين، أي وبصرنا متعبداتنا في الحج، أو وعرفناها. وقيل مذابحنا. وعن السمين الحلبي أن الزمخشري أجاز أن تكون منقولةً من (رأى) بمعنى عَرَفَ فتعدى أيضاً لاثنين...

... وأجاز قومٌ فيما حكاه ابن عطية أنها هنا قلبيةٌ، والقلبية قبل النقل تتعدى

لاثنين، كقوله:

وإِنَّا لَقَوْمٌ مَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأْتَهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

الطوسي: وقوله: ﴿وَأَرِنَا﴾ يحتمل أمرين: أحدهما - أن يكون من رؤية البصر. والآخر - أن يكون من رؤية القلب بمعنى اعلما... وقال بعضهم: هي هنا بصريّةٌ قلبيةٌ معاً؛ لأنَّ الحَجَّ لا يَتِمُّ إِلَّا بِأَمُورٍ مِنْهَا مَا هُوَ مَعْلُومٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُبْصَرٌ، وَيَلْزَمُهُ عَلَى هَذَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ أَوْ اسْتِعْمَالُ الْمَشْتَرِكِ فِي مَعْنِيهِ مَعاً.

وكذا أبو حيان في بحره بعد ذكره لما قاله بعض الناس: المراد هنا بالرؤية رؤية البصر والقلب معاً؛ لأنَّ الحَجَّ لا يَتِمُّ إِلَّا بِأَمُورٍ بَعْضُهَا يَعْلَمُ وَلَا يَرَى، وَبَعْضُهَا لَا يَتِمُّ الْغَرَضُ مِنْهُ إِلَّا بِالرُّؤْيَةِ، فَوَجِبَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً. قال: وهذا ضعيف؛ لأنَّ فِيهِ الْجَمْعُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ، أَوْ حَمْلُ اللَّفْظِ الْمَشْتَرِكِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ لَا يَجُوزُ عِنْدَنَا.<sup>١</sup>

السمين الحلبي: قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ الظاهر أن الرؤية هنا بصريّة، فرأى في الأصل يتعدى لواحدٍ، فلما دَخَلَتْ هَمْزَةُ النِّقْلِ أَكْسَبَتْهَا مَفْعُولًا ثَانِيًا، ف«نَا» مَفْعُولٌ أَوَّلٌ، و﴿مَنَاسِكَنَا﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ.

الشوكاني: وقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، هي من الرؤية البصرية. وقرأ عمر بن عبد

١. البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ).



العزیز، وقتادة، وابن كثير، وابن محيصن، وغيرهم «أرنا» بسكون الراء، ومنه قول الشاعر:

أرنا إداوة عبد الله يملؤها (نملؤها) من ماء زمزم إن القوم قد ظمئوا

المنار: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي علمنا إياها علماً يكون كالرؤية البصرية في الجلاء والوضوح.

فيما أن السيد السبزواري يذهب إلى أن المراد من الرؤية هي الرؤية الحقيقية كما يسميها، يختم بها كلامه عن الآية، حيث يقول: وبعد هذا كله، قال: والمراد بالرؤية هنا الرؤية الحقيقية أي المعرفة والإراءة، لا مجرد الرؤية البصرية والتعليم القولي، وتدل على ذلك روايات كثيرة دالة على أن جبرائيل كان معه عليه السلام في جميع أعماله وأطواره كما كان مع نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله في حجة الوداع.<sup>١</sup>

ومما قاله النيبان عليه السلام في دعائهما أنهما طلبا تفهم طريق العبادة: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾؛ ليعبد الله حقَّ عبادته.

هذا ما صرح به الشيخ مكارم الشيرازي في تفسيره للآية.<sup>٢</sup>

أما ﴿مَنَاسِكَنَا﴾، فقراءة النسك، وما المراد منه، أيضاً لهم فيها كلام بين: إسكان سينها أو ضمها، فقد قرأ الحسن: «نُسْكِ» بإسكان السين، وهكذا قرأها أبو حياة والحسن. فيما جمهور الناس قرأها: (ونسكي) بضم السين. وبين كسر سينها وفتحها، كما يذكر الطبري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾. سورة الحج: ٦٧.

١. مواهب الرحمن في تفسير القرآن، للسيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري ٢: ٤١-٤٢.

٢. انظر جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت ٣١٠هـ): الآية؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)؛ تفسير الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت ٦٧١هـ)؛ تفسير الكشاف، الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)؛ تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (ت ٦٨٥هـ): الآية؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ١: ٣٨٣.



حين قول:.. أن المنسك فيه لغتان: «مَنَسِك» بكسر السين وفتح الميم، وذلك من لغة أهل الحجاز، و«مَنَسَك» بفتح الميم والسين جميعاً، وذلك من لغة أسد. وقد قرىء باللغتين جميعاً.

القرطبي:.. وكل ما يُتَعَبَّد به إلى الله تعالى يقال له مَنَسَك ومَنَسِك. والناسك: العابد. قال النحاس: يقال نَسَك يَنسُك، فكان يجب أن يقال على هذا: مَنَسُك، إلا أنه ليس في كلام العرب مَفْعُل.

وأما الأَخْفَش، فقد ذكر الاختلاف في تسميتها منسكاً، وهذا كلامه: واحد المناسك منسك مثل مسجد قد اختلفوا في تسميتها منسكاً على وجهين: أحدهما: لأنه معتاد ويتردد الناس إليه في الحج والعمرة، من قولهم: إن فلان منسكاً، إذا كان له موضع معتاد لخير أو شر، فسميت بذلك مناسك الحج لاعتيادها. والثاني: أن النسك عبادة الله تعالى، ولذلك سُمِّي الزاهد ناسكاً لعبادة ربّه، فسميت هذه مناسك؛ فهي عبادات تطلق على الأماكن: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ...﴾. سورة الحج: ٦٧. عن ابن عباس. وقيل: مكاناً يألّفونه وموضعاً يعتادونه لعبادة الله ومناسك الحج من هذا؛ لأنها مواضع العبادات فيه فهي متعبدات الحج. وقيل: موضع قربان أي متعبد في إراقة الدماء مني أو غيره عن مجاهد وقتادة. وتطلق على الأفعال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، سورة الأنعام: ١٦٢.

فالنسك هنا في بعض معانيه هو جميع أعمال البرّ والطاعات من قولك نسك فلان فهو ناسك، إذا تعبد، أو الدين كما عن الحسن نُسُكِي: ديني. أو العبادة، كما جاء عن الجبائي والزجاج: ﴿نُسُكِي﴾: عبادتي، فقال الزجاج: عبادتي ومنه الناسك الذي يتقرب إلى الله بالعبادة...

الطوسي: والنسك في اللغة: العبادة. ورجل ناسك عابد، وقد نسك نسكاً. والنسك: الذبيحة يقال: من فعل كذا فعلية نسك، أي دم يهريقه، ومنه قوله: ﴿أَوْ



**نُسُكٌ** أي دم واسم تلك الذبيحة: النسيسة والموضع الذي يذبح فيه المناسك والمنسك هو النسك نفسه. قال الله تعالى: **﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾**، ويقال: نسك ثوبه أي غسله وقال ابن دريد: النسك أصله ذبائح كانت تذبح في الجاهلية. والنسيسة: شاة كانوا يذبحونها في الحرم في الإسلام، ثم نسخ ذلك بالأضاحي قال الشاعر:

وذا النصب المنصوب لا تنسكته      ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا  
وأصل الباب العبادة وقيل: إنَّ النسك الغسل.

قال الشاعر:

فلا ينبت المرعى سباح عراعر      ولو نسكت بالماء ستة أشهر  
أي غسلت ذكره الحسين بن علي المغربي. قال: وليس بمعروف.

والرازي يقول: فالنسك كل ما تقربت به إلى الله تعالى، إلا أنَّ الغالب عليه في العرف الذبح.

فيما خصَّصه بعض بالذبيحة؛ فالنسك جمع نسيسة، وهي الذبيحة: كما عن سعيد بن جبير ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي **﴿نُسُكِي﴾**: ذبيحتي للحج والعمرة. والمعنى: ذبَّحِي في الحجِّ والعمرة.

السمين الحلبي: والمناسكُ واحدها: منسك بفتح العين وكسرها، وقد قرىء بهما والمفتوح هو المقيس لانضمام عين مضارعه. والمنسكُ: موضعُ النسك وهو العبادة.<sup>١</sup>

١. انظر مجمع البيان للطبرسي؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)؛ التفسير الكبير للإمام الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)؛ تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤ هـ)؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي؛ تفسير الدرِّ المصون، السمين الحلبي (ت ٧٥٦ هـ)؛ تفسير فتح القدير، الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ)؛ تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لليضاوي (ت ٦٨٥ هـ)؛ تفسير اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل (ت ٨٨٠ هـ)؛ تفسير الكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)؛ جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (ت ٣١٠ هـ)؛ مفاتيح الغيب للرازي (ت ٦٠٦ هـ): الآية...



وأما عن تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: فالطبري يقول: .. اختلفوا في تأويل قوله: ﴿مَنَاسِكَنَا﴾، فقال بعضهم: هي مناسك الحجِّ ومعالمه؛ فعن قتادة: فأراهما الله مناسكهما: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار، حتى أكمل الله الدين أو دينه. وأيضاً عن قتادة قال: أرنا نُسكنا وحجَّنا.

وقال آخرون ممن قرأ هذه القراءة: المناسك المذابح. فكان تأويل هذه الآية على قول من قال ذلك: وأرنا كيف نُنسكُ لك يا ربنا نسائكنا، فنذبحها لك.. عن ابن جريج، عن عطاء: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، قال: ذَبَحْنَا.

وأيضاً عن ابن جريج، عن عطاء، قال: مذابحنا. وكذا عن مجاهد وعبيد بن عمير مثله.

ويذكر الطبري: أنَّ المناسك وهي جمع «مَنَسِك»، وهو الموضع الذي ينسك الله فيه، ويتقرب إليه فيه بما يرضيه من عمل صالح إما بذبح ذبيحة له، وإما بصلاة أو طواف أو سعي، وغير ذلك من الأعمال الصالحة؛ ولذلك قيل لمشاعر الحجِّ: مناسكها؛ لأنها أمارات وعلامات يعتادها الناس، ويتردَّدون إليها.

ثمَّ يقول: وأصل المَنَسِك في كلام العرب: الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه، يقال: لفلان منسك، وذلك إذا كان له موضع يعتاده لخير أو شرٍّ؛ ولذلك سميت المناسك مناسك، لأنها تُعتاد ويتردَّد إليها بالحجِّ والعمرة، وبالأعمال التي يتقرب بها إلى الله.

وقد قيل: إنَّ معنى النسك: عبادة الله، وأنَّ الناسك إنما سُمِّي ناسكاً بعبادة ربِّه، فتأول قائل هذه المقالة قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، وعَلَّمنا عبادتك كيف نعبدك، وأين نعبدك، وما يرضيك عنا فنفعله.

ثمَّ يُعقب قائلاً: وهذا القول وإن كان مذهباً يحتمله الكلام، فإنَّ الغالب على





معنى المناسك ما وصفنا قبل من أنها مناسك الحج التي ذكرنا معناها.

(وأما عن مسألتها) ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾:

فقد خرج هذا الكلام والقول للطبري من قول إبراهيم وإسماعيل على وجه المسألة منهما ربهما لأنفسهما، وإنما ذلك منها مسألة ربهما لأنفسهما وذريتهما المسلمين، فلما ضمّا ذريتهما المسلمين إلى أنفسهما صارا كالمخبرين عن أنفسهم بذلك. وإنما قلنا: إن ذلك كذلك؛ لتقدم الدعاء منها للمسلمين من ذريتهما قبل في أول الآية، وتأخره بعد في الآية الأخرى. فأما الذي في أول الآية فقولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، ثمّ جمعا أنفسهما والأمة المسلمة من ذريتهما في مسألتها ربهما أن يريهم مناسكهم فقالا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، وأما التي في الآية التي بعدها ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾، سورة البقرة: ١٢٩. فجعلنا المسألة لذريتهما خاصة. وقد ذكر أنها في قراءة ابن مسعود: «وَأَرِهِمْ مَنَاسِكَهُمْ»، يعني بذلك: وأر ذريتنا المسلمة مناسكهم...<sup>١</sup>

الطوسي: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فالمناسك ههنا المتعبدات، قال الزجاج: كلّ متعبد منسك .

وقال الجبائي: المناسك هي ما يتقرب به إلى الله من الهدى، والذبح، وغير ذلك من أعمال الحج والعمرة.

وقال عطا: مناسكنا: مذابحنا.

وقال قتادة: أراهما الله مناسكهما الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة عن عرفات والإفاضة من جمع، ورمي الجمار حتى أكمل الله الدين. ويصف الشيخ الطوسي قول قتادة هذا بأنه القول أقوى؛ لأنه العرف في معنى المناسك .

١ . جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (ت ٣١٠ هـ): الآية.



هذا ما ذكره كلُّ من الطبري والطوسي في الآية، أما الرازي فيذكر قولين في ﴿أَرَأَيْتُمْ...﴾ يراهما قولين معتبرين، فيما القول الثالث يضعفه.

الأول: معناه علمنا شرائع حجنا إذ أمرتنا ببناء البيت لنحجّه وندعوا الناس إلى حجّه، فعلمنا شرائعه وما ينبغي لنا أن نأتيه فيه من عمل وقول مجاز هذا من رؤية العلم، قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾، سورة الفرقان: ٤٥.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، سورة الفيل: ١.

الثاني: أظهرها لأعيننا حتى نراها. قال الحسن: إن جبريل عليه السلام أرى إبراهيم عليه السلام المناسك كلها، حتى بلغ عرفات، فقال: يا إبراهيم، أعرفت ما أريتك من المناسك؟ قال: نعم. فسميت عرفات.

فلما كان يوم النحر، أراد أن يزور البيت، عرض له إبليس فسد عليه الطريق، فأمره جبريل عليه السلام أن يرميه بسبع حصيات ففعل، فذهب الشيطان. ثم عرض له في اليوم الثاني والثالث والرابع، كل ذلك يأمره جبريل عليه السلام برمي الحصيات.

وهنا قول ثالث، وهو أن المراد العلم والرؤية معاً. وهو قول القاضي؛ لأنَّ الحجَّ لا يتمُّ إلاَّ بأمور بعضها يعلم ولا يرى، وبعضها لا يتم الغرض منه إلاَّ بالرؤية، فوجب حمل اللفظ على الأمرين جميعاً. وهذا ضعيف؛ لأنه يقتضي حمل اللفظ على الحقيقة والمجاز معاً وأنه جائز.

فبقي القول المعتبر وهو القولان الأولان، فمن قال بالقول الثاني قال: إنَّ المناسك هي المواقف والمواضع التي يقام فيها شرائع الحجِّ كمنى وعرفات والمزدلفة ونحوها. ومن قال بالأول قال: إنَّ المناسك هي أعمال الحجِّ كالطواف والسعي والوقوف. وفي المسألة الثانية يذكر أنَّ النسك هو التعبد، يقال للعابد ناسك ثم سمي الذبح نسكاً والذبيحة نسيكة، وسمي أعمال الحجِّ مناسك. قال صلى الله عليه وآله: «خذوا عني مناسككم لعلِّي



لا ألقاكم بعد عامي هذا».

والمواضع التي تقام فيها شرائع الحجّ تسمى: مناسك أيضاً، ويقال: المنسك بفتح السين بمعنى الفعل، وبكسر السين بمعنى المواضع، كالمسجد والمشرق والمغرب، قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ سورة الحجّ: ٦٧. قرىء بالفتح والكسر، وظاهر الكلام يدل على الفعل، وكذلك قوله ﷺ: «خذوا عني مناسككم».

أمرهم بأن يتعلموا أفعاله في الحجّ لأنه أراد: خذوا عني مواضع نسككم.

ويعقب الرازي قائلاً: إذا عرفت هذا فنقول: إن حملنا المناسك على مناسك الحجّ، فإن حملناها على الأفعال، فالإراءة لتعريف تلك الأعمال، وإن حملناها على المواضع، فالإراءة لتعريف البقاع.

أما من حمل المناسك على الذبيحة فقط، فقد خطأه الرازي قائلاً: من المفسرين من حمل المناسك على الذبيحة فقط، وهو خطأ؛ لأنّ الذبيحة إنما تسمى نسكاً لدخولها تحت التعبّد، ولذلك لا يسمون ما يذبح للأكل بذلك، فما لأجله سميت الذبيحة نسكاً، وهو كونه عملاً من أعمال الحجّ قائم في سائر الأعمال، فوجب دخول الكلّ فيه.

ثمّ يقول: وإن حملنا المناسك على ما يرجع إليه أصل هذه اللفظة من العبادة والتقرب إلى الله تعالى، واللزوم لما يرضيه، وجعل ذلك عاماً لكلّ ما شرعه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام فقله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، أي علمنا كيف نعبدك، وأين نعبدك، وبماذا نتقرب إليك حتى نخدمك به كما يخدم العبد مولاه<sup>١</sup>.

الخصاص: وَالْأَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، سَائِرُ أَعْمَالِ الْحُجِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُمَا بِنَاءِ الْبَيْتِ لِلْحَجِّ، وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي لَيْلَى عَنْ ابْنِ أَبِي مَلِيكَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَتَى جَبْرَائِيلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَاخَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ مَنَى». وَذَكَرَ أَعْمَالَ الْحُجِّ عَلَى نَحْوِ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّتِهِ، قَالَ: ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ

(...وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا...)(١)



﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. وكذلك أرسل النبي ﷺ إلى قوم بعرفاتٍ وقوفٍ خلفه وهو واقفٌ بها، فقال: «كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، يدل على لزوم اتباع إبراهيم في شرائعه فيما لم يثبت نسخه، وأفاد بذلك أن من رغب عن ملة محمد ﷺ فهو رغب عن ملة إبراهيم إذ كانت ملة النبي ﷺ منتظمة لملة إبراهيم وزائدة عليها<sup>١</sup>. وعن المراد من النسك يقول السبزواري: النسك: العبادة والناسك: العابد، والمنسك: هو الموضع المعد للعبادة، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ سورة الحج، الآية: ٦٧.

ولكن اختص اللفظ في العرف الخاص بأفعال الحج، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ سورة البقرة: ٢٠٠.

ومع هذا لم ينف السيد أن النسك يعني الهدى، فقال: يستعمل في خصوص الهدى أيضاً، قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَيَّعْتُمْ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٩٦. والنسك هو الهدى وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.

وعن نبينا الأعظم ﷺ فيما رواه الفريقان بطرق متواترة: «خذوا عني مناسككم». وهذا ما ستعرض إليه في الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

### كيفية أداء المناسك:

مناسك الحج الإبراهيمية تعد من أهم ما توفرت عليه المنظومة العبادية التي

١. كتاب أحكام القرآن للجصاص، قمحاوي: الآية.



يُتَقَرَّبُ بِهَا مِنْ قَبْلِ الْعِبَادَةِ إِلَى بَارئِهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى هِيَ تَلِكُ الْخَطَوَاتِ  
الَّتِي أَرَاهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَلَامًا مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وهذه المناسك ومعرفتها وأداؤها تكفلت بها مضامين الروايات وذكرتها الأخبار  
عن عهد إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، والتي تحدّثت عن مناسك الحجّ وكيفية أدائها.

وقبل ذكرها، نُشِيرُ إِلَى أَنَّهَا لَا تَخْلُو مِنْ اخْتِلَافٍ نَجْدُهُ بَيْنَ مَتُونِهَا، فَفِي وَقْتِ الْأَذَانِ  
بِالْحَجِّ، أَوْ قَعٍ بَعْدَ فِرَاقِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ أَوْ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ لِمَنَاسِكِ الْحَجِّ وَأَدَائِهَا  
بِإِرْشَادِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَذَا فِي مَكَانٍ وَقُوعِهِ؛ الْمَقَامِ أَوْ جَبَلِ قَبَيْسٍ أَوْ شَبْرٍ، ...؟

- لَمَّا فَرَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، جَاءَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: أَيُّ رَبِّ  
قَدْ فَعَلْتَ، فَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا، أَيُّ: أُبْرُزْهَا لَنَا وَعَلِّمْنَاهَا، وَقِيلَ: أَرْنَا مَنَاسِكَنَا: مَذَابِحَنَا، فَجَاءَهُ  
جَبْرِيلُ، فَقَالَ: طُفْ بِهِ سَبْعًا هُوَ وَإِسْمَاعِيلُ يَسْتَلِمَانِ الْأَرْكَانَ كُلَّهُمَا فِي كُلِّ طَوَافٍ، وَكَانَ  
أَدَمُ يَسْتَلِمُ الْأَرْكَانَ كُلَّهُمَا قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا أَكْمَلَ سَبْعًا، صَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ.

فَقَامَ مَعَهُ جَبْرِيلُ، فَأَرَاهُ الْمَنَاسِكَ كُلَّهَا؛ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ، وَمَنَى، وَمَزْدَلِفَةَ، وَعَرَفَةَ،  
فَلَمَّا دَخَلَ مَنَى وَهَبَطَ مِنَ الْعَقْبَةِ تَمَثَّلَ لَهُ إِبْلِيسُ، وَفِي رِوَايَةٍ: بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ  
جَبْرِيلَ فَحَجَّ بِهِ حَتَّى إِذَا جَاءَ يَوْمَ النَّحْرِ، عَرَضَ لَهُ إِبْلِيسُ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقْبَةِ، فَقَالَ لَهُ  
جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِرْمِهِ فَرَمَاهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ فَغَابَ عَنْهُ، ثُمَّ بَرَزَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ  
السُّفْلَى، فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِرْمِهِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ فَغَابَ عَنْهُ، ثُمَّ بَرَزَ لَهُ عِنْدَ  
الْجَمْرَةِ الْوَسْطَى، فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَبِّرْ وَارْمِهِ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ مِثْلَ حَصَى  
الْخِذْفِ فَغَابَ عَنْهُ إِبْلِيسُ، وَفِي رِوَايَةٍ: فَرَمَاهُ مِنَ الْغَدِّ وَالْيَوْمِ الثَّلَاثِ كَذَلِكَ، ثُمَّ مَضَى  
إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَجِّهِ وَجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوَقِّفُهُ عَلَى الْمَوَاقِفِ وَيُعَلِّمُهُ الْمَنَاسِكَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى  
عَرَفَاتٍ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهَا قَالَ لَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَعْرِفْتَ مَنَاسِكَكَ؟ قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَعَمْ؛  
فَسَمِيَتْ عَرَفَاتُ بِذَلِكَ. فَلَمَّا فَرَعَ مِنَ الْحَجِّ، أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يُؤْذَنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ. فَفِي  
هَذِهِ الرِّوَايَةِ: فَلَمَّا فَرَعَ مِنَ الْحَجِّ، أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يُؤْذَنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ.



خلافاً لما جاء في الرواية الثانية، والتي فيها: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، قال: يا ربّ قد فرغت، فأوحى الله إليه أن أذن في الناس بالحجّ.

فالرواية الأولى وقع الأذان بعد الفراغ من الحجّ. أي بعد أدائه عليه السلام لمناسك الحجّ. فيما الثانية بعد فراغه من بناء البيت. فلما أمر أن يؤذن بالحجّ، قال: يا ربّ وما يبلغ صوتي؟ فقال الله تعالى: **أُذِّنْ وَعَلَيَّ الْبَلَاغُ.**

وفي رواية: قال: وكيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس أجيئوا ربّكم ثلاث مرات! فعَلَّ إبراهيم عليه السلام على المقام، فارتفع به حتى صار أرفع الجبال وأطولها.

وفي رواية: صعد أبا قبيس وأذّن بالحجّ، وفي رواية: علا على شبر، وجمعت له الأرض يومئذ سهلها وجبلها وبرها وبحرها وإنسها وجنّها حتى أسمعهم جميعاً، وتطأطأت الجبال، وفي رواية: خفضت الجبال رؤوسها ورفعت له القرى فأدخل إصبعيه في صماخي أذنيه، وأقبل بوجهه يمناً وشاماً وشرقاً وغرباً، وبدأ بشقّ اليمن، فقال: أيها الناس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق فأجيئوا ربّكم، وفي رواية: إن الله قد أمركم بحجّ هذا البيت؛ ليشيكنكم به الجنّة ويجيركم من عذاب النار فحجوا؛ فأجابوه من تحت التخوم السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أقطار الأرض كلّها: لبيك اللهم لبيك، وفي رواية: أي كلّ رطب ويابس، وسمعه من بين المشرق والمغرب، وأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فليس أحد يحجّ إلى يوم القيامة إلا من أجاب نداء إبراهيم عليه السلام.

وإنما حجّهم على قدر إجابتهم يومئذ، فمن أجابه مرة حجّ مرة، ومن أجابه مرتين حجّ مرتين، ومن أجابه أكثر، فأكثر على حسب إجابته، ويروى أنه كان بين ذلك وبين أن بعث الله محمدًا صلّى الله عليه وآله ثلاثة آلاف سنة، وكان أول من أجاب دعوة إبراهيم عليه السلام بالتلبية أهل اليمن. وذهب جماعة إلى أن المأمور في قوله تعالى: **﴿وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾** سيدنا

رسول الله صلّى الله عليه وآله.



وفي رواية استقبال إبراهيم اليمن ودعا إلى الله وإلى حجّ بيته، فأجيب أن لبيك لبيك، ثمّ استقبال المشرق فدعا إلى الله وإلى حجّ بيته، فأجيب أن لبيك لبيك، ثمّ إلى المغرب بمثل ذلك، ثمّ إلى الشام بمثل ذلك، ثمّ حجّ إبراهيم بإسماعيل وبمن معه من المسلمين من جرهم، وهم سكان الحرم يومئذ مع إسماعيل، وهم أصهاره، وصلّى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء بمنى، ثمّ بات بهم حتى أصبح وصلّى بهم الغداة، ثمّ غدا بهم إلى نمرة، فقام بهم هنالك حتى إذا مالت الشمس جمع بين الظهر والعصر بعرفة في مسجد إبراهيم، ثمّ راح بهم إلى الموقف من عرفة، وهو الموقف الذي يقف عليه الإمام اليوم فوقف بهم، فلما غربت الشمس، دفع به وبمن معه حتى أتى المزدلفة، فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة، ثمّ بات حتى إذا طلع الفجر صلّى بهم الغداة، ثمّ وقف به على قزح من المزدلفة وبمن معه، وهو الموقف الذي يقف به الإمام اليوم حتى إذا أسفر غير مشرق، دفع به وبمن معه يريه ويعلمه كيف يرمي الجمار حتى فرغ من الحجّ كلّّه، ثمّ انصرف إبراهيم عليه السلام راجعاً إلى الشام، فتوفي بها.

إضافةً لهذا، فهناك أخبار وروايات عن المناسك وكيفيةها، وفي أكثرها وردت هذه العبارات: «فأرنا مناسكنا.. فأراه مناسكه.. أراهما الله مناسكهما.. ربّ أرنا مناسكنا..».

منها: ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن المسيب عن عليّ عليه السلام، قال: لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، قال: قد فعلتُ أي رب، فأرنا مناسكنا، أبرزها لنا، علّمناها، فبعث الله جبريل فحجّ به...

وعن ابن عباس قال: كان المقام في أصل الكعبة، فقام عليه إبراهيم عليه السلام، فتفرجت عنه هذه الجبال أبو قبيس وصاحبه إلى ما بينه وبين عرفات، فأراه مناسكه حتى انتهى إليه، فقال: عرفت؟ قال: نعم. فسميت عرفات.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ قال: أراهما الله مناسكهما؛ الموقف بعرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار والطواف بالبيت، والسعي بين



## الصفاء والمرورة.

وفي بعضها أن جبريل أراه المناسك قبل الأذان بالحجّ، منها:.. عن مجاهد قال: قال إبراهيم عليه السلام: رب أرنا مناسكنا. فاتاه جبريل فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد. فرفع القواعد وأتمّ البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه، فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المرورة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبر وارمه. فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس، فقام عند الجمرة الوسطى، فلما حاذى به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه. فكبر ورمى، فذهب إبليس حتى أتى الجمرة القصوى، فقال له جبريل: كبر وارمه. فكبر ورمى، فذهب إبليس، وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحجّ شيئاً، فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، ثم ذهب حتى أتى به عرفات قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها ثلاث مرات. قال: نعم. قال: فأذن في الناس بالحجّ. قال: وكيف أؤذن؟ قال: قل يا أيها الناس أجيئوا ربكم ثلاث مرات، فأجاب العباد لبيك اللهم ربنا لبيك، فمن أجاب إبراهيم يومئذ من الخلق فهو حاجّ! وفي بعضها بعد الأذان بالحجّ. الطبري... عن السدي في **﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾**، قال: لما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بنيان البيت، أمره الله أن ينادي فقال: **﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾**، فنادى بين أحشبي مكة: يا أيها الناس، إن الله يأمركم أن تحجّوا بيته. قال: فوقرت في قلب كل مؤمن، فأجابه كل من سمعه من جبل أو شجر أو دابة: لبيك لبيك، فأجابه بالتلبية: لبيك اللهم لبيك. وأتاه من أتاه، فأمره الله أن يخرج إلى عرفات ونعتها فخرج، فلما بلغ الشجرة عند العقبة، استقبله الشيطان، فرماه بسبع حصياتٍ يكبر مع كل حصاة، فطار فوق على الجمرة الثانية أيضاً، فصدّه، فرماه وكبر، فطار فوق على الجمرة الثالثة، فرماه وكبر. فلما رأى أنه لا يطيقه، ولم يدر إبراهيم أين يذهب، انطلق حتى أتى ذا المجاز، فلما نظر إليه فلم يعرفه جاز، فلذلك سمي ذا المجاز.





ثم انطلق حتى وقع بعرفات، فلما نظر إليها عرف النعت، قال: قد عرفتُ فسميت عرفات. فوقف إبراهيم بعرفات. حتى إذا أمسى ازدلف إلى جمع، فسميت المزدلفة. فوقف بجمع. ثم أقبل حتى أتى الشيطان حيث لقيه أول مرة، فرماه بسبع حصيات سبع مرّات، ثم أقام بمنى حتى فرغ من الحجّ وأمره. وذلك قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾. ولا أدري أهذه هي الأقوال التي يقصدها أبو حيان في تفسيره البحر المحيط؛ أنها مضطربة النقل بقوله: وذكر المفسرون في كيفية تأدية إبراهيم وإسماعيل هذه المناسك أقوالاً سبعة مضطربة النقل. وذكروا أيضاً من حجّ هذا البيت من الأنبياء، ومن مات بمكة منهم. وذكروا أنه مات بهانوح، وهود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، وغيرهم، ولم تتعرض الآية الكريمة لشيء من ذلك، فتركنا نقل ذلك على عادتنا<sup>١</sup>.

وإنّ مناسك الحجّ الإبراهيمي قد ورثها العرب الوثنيون منهم والحنفاء الذين ظلّوا يقصدون البيت الحرام من هنا وهناك، ليؤدّوا منسك الحجّ، أو بالحقيقة ما بقي منه، فقد حُرّف بعضه، وتُرك آخر، ولكن ما بقي يُشكّل أصلاً مهماً من مراسيم الحجّ وشعائره، فالطواف بأشواطه السبعة باق وكذا السعي، وهكذا المواقف الأخرى كالوقوف بمنى.. وكاهدي..، إلا أنّ الحمس وهم المتشددون يرون أنهم من قريش من أهل مكة، يخرجون فقط إلى نمرة، ولا يدخلون عرفات، في حين أنّ النبيّ ﷺ في حجة الوداع، وقف قليلاً عند نمرة، ثم اندفع نحو عرفات...

وسياتينا الكلام عن الدور الكبير الذي بذله رسول الله ﷺ في تبليغ فريضة الحجّ وتعليم مناسكه في الآية الثانية.

بقي من هذه الآية، فقرتها الأخيرة: ﴿وَتُوبَ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ﴾ التي حَتَمَ بها دعاءهما لهذه الذرية وما انبثق عنها من أمة صالحة؛ ليغفر لهم ويتوب عليهم...

١. البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ): الآية .



وخاتمة دعاء كل من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عدّها الألوسي: تعليل للدعاء، ومزيد استدعاء للإجابة، وتقديم التوبة للمجاورة، وتأخير الرحمة لعمومها، ولكونها أنسب بالفواصل.

فيما اكتفى ابن عاشور بأنها تعليل لجمل الدعاء.

يقول الطبري في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتُوبَ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: أما التوبة فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوب، فتوبة العبد إلى ربه: أوبته مما يكرهه الله منه بالندم عليه والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه. وتوبة الرب على عبده: عوده عليه بالعفو له عن جرمه والصفح له عن عقوبة ذنبه، مغفرة له منه، وتفضلاً عليه.

فإن قال لنا قائل: وهل كان لهما ذنوب، فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟

قيل: إنه ليس أحد من خلق الله إلا وله من العمل فيما بينه وبين ربه ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة.

فجائز أن يكون ما كان من قبلهما ما قالوا من ذلك، وإنما خصّ به الحال التي كانا عليها من رفع قواعد البيت؛ لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما، وليجعل ما فعلا من ذلك سنة يقتدي بها بعدهما، وتتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصّل من الذنوب إلى الله.

وجائز أن يكونا عنيا بقولهما: ﴿وَتُوبَ عَلَيْنَا﴾ وتب على الظلمة من أولادنا وذريتنا الذين أعلمتنا أمرهم من ظلمهم وشركهم، حتى ينيبوا إلى طاعتك. فيكون ظاهر الكلام على الدعاء لأنفسهما، والمعنى به ذريتهما، كما يقال: أكرمني فلان في ولدي وأهلي، وبرّني فلان: إذا برّ ولده.

وأما قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فإنه يعني به: إنك أنت العائد على عبادك بالفضل والمتفضل عليهم بالعفو والغفران، الرحيم بهم، المستنقذ من



تشاء منهم برحمتك من هلكته، المنجى من تريد نجاته منهم برأفتك من سخطك. لقد سأل الله تعالى التوبة مع كونها معصومين تعليماً لذريتهما دون أن يفردا نفسيهما عن هذه الذرية ويعزلاها عن هذه الأمة، فدعوا للجميع؛ ليغفر لهم ويتوب عليهم..، أو أنهما قالوا هذه الكلمة على وجه التسبيح والتعبد والانقطاع إلى الله سبحانه؛ ليقتردي بهما الناس فيها...

**الطوسي:** ﴿وَتُوبَ عَلَيْنَا﴾، أي ارجع علينا بالرحمة والمغفرة وليس فيه دلالة على جواز الصغيرة، أو فعل القبيح عليهم. ومن ادعى ذلك، فقد أبطل. وقال قوم: معناه تب على ظلمة ذريتنا. وقيل: بل قالوا: ذلك انقطاعا إليه تعالى تعبداً ليقتردي بهما فيه. وهو الذي نعتمده...

فيما فصل الألوسي ذلك؛ بعد أن ذكر أن ﴿وَتُوبَ عَلَيْنَا﴾: أي وفقنا للتوبة أو اقبلها منا. قائلًا: والتوبة تختلف باختلاف التائبين: فتوبة سائر المسلمين: الندم والعزم على عدم العود وردّ المظالم إذا أمكن، ونية الردّ إذا لم يمكن. وتوبة الخواص: الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء، والفتور في الأعمال، والإتيان بالعبادة على غير وجه الكمال.

وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات، والترقي في المقامات.

فإن كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام طلبا التوبة لأنفسهما خاصة، فالمراد بها ما هو من توبة القسم الأخير، وإن كان الضمير شاملاً لهما وللذرية كان الدعاء بها منصرفاً لمن هو من أهلها ممن يصح صدور الذنب المخل بمرتبة النبوة منه.

وإن قيل: إن الطلب للذرية فقط، وارتكب التجوز في النسبة إجراءً للولد مجرى النفس بعلاقة البعضية؛ ليكون أقرب إلى الإجابة، أو في الطرف حيث عبر عن الفرع باسم الأصل، أو قيل: بحذف المضاف أي - على عصاتنا - زال الإشكال كما إذا قلنا: إنَّ ذلك عمّا فرط منهما من الصغائر سهواً، والقول بأنهما لم يقصدا الطلب حقيقة، وإنما



ذكر ذلك للتشريع وتعليم الناس أن تلك المواضع مواضع التنصل، وطلب التوبة من الذنوب بعيد جداً، وجعل الطلب للتثبيت لا أراه هنا يجدي نفعاً - كما لا يخفى - وقرأ عبدالله «وَتُبَّ عَلَيْهِمْ». بضمير جمع الغيبة أيضاً.

الرازي: ... أنه تعالى لما أعلم إبراهيم عليه السلام أن في ذريته من يكون ظالماً عاصياً، لا جرم سأل هاهنا أن يجعل بعض ذريته أمةً مسلمةً، ثم طلب منه أن يوفق أولئك العصاة للتوبة، فقال: «وَتُبَّ عَلَيْنَا». أي على المذنبين من ذريتنا، والأب المشفق على ولده إذا أذنب ولده، فاعتذر الوالد عنه، فقد يقول: أجمت وعصيت فاقبل عُذري، ويكون مراده: أن ولدي أذنب فاقبل عُذره؛ لأن ولد الإنسان يجري مجرى نفسه، والذي يقوي هذا التأويل وجوه: الأول: ما حكى الله تعالى في سورة «إبراهيم» أنه قال: «وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ \* رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». سورة إبراهيم: ٣٥-٣٦. فيحتمل أن يكون المعنى: ومن عصاني فإنك قادر على أن تتوب عليه إن تاب، وتغفر له ما سلف من ذنوبه. الثاني: ذكر أن في قراءة عبد الله: وأرهم مناسكهم وتب عليهم. الثالث: أنه قال عطفاً على هذا: «رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ». الرابع: تأولوا قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ». سورة الأعراف: ١١. بجعل خلقه إياه خلقاً لهم إذ كانوا منه، فذلك لا يبعد أن يكون قوله: «أَرْنَا مَنَّا سَكْنَا»، أي أر ذريتنا.<sup>١</sup>

### للبحث صلة

١. جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت ٣١٠ هـ)؛ روح المعاني، الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ)؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)؛ مفاتيح الغيب، للرازي: الآية.